أمل دنقل

اللون الواضح فى قوس قزح

ثلاثون عاما مرت على رحيل الشاعر الكبير أمل دنقل، الذى أدهش العالم العربى بأشعاره المتفردة، ورؤاه العميقة المستقاة من التراث العربى الثري، الذى هضمه جيدا وصاغه فى قصائد وجدانية درامية، لم يسبقه أحد إليه بهذا التمكن والفرادة، بل أصبحت له بصمة لا تخطئها العين ولا الأذن التى تستمع لقصائده، أثار العديد من المعارك الأدبية فى حياته، لاعتداده بنفسه وثقته بموهبته وثقافته الرفيعة، وظل محاربا عنيدا مؤمنا بآرائه التى لا يحيد عنها أبدا، فصار مثل اللون الواضح فى قوس قزح، وصرخ مع من صرخوا ضد معاهدة السلام، ووقتها أطلق رائعته "لا تصالح" قائلا:

"لا تصالح!،

ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك

ثم أثبت جوهرتين مكانهما

هل ترى ؟

هى أشياء لا تشترى

ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك... الخ"

قالها أمل دنقل وأبرأ ذمته للتاريخ، ورحل وكأنه كان يرى ما سوف يحدث، وتنبأ به حينما كتب قصائد المجموعة "أقوال جديدة عن حرب البسوس ما بين عام ١٩٧٦-١٩٧٧ تنبأ بما يحدث الآن على أرض فلسطين، من قتل وتشريد وهدم للبيوت، وموقف العربى المخزى تجاه هذه القضية، قالها - أمل - وحدثت بعدها معاهدة كامب ديفيد التى كبلتنا وجعلت العربى يأخذ موقف المتفرج على أخيه العربي، وفى أحد مقالاته فى مجلة "آفاق عربية" عام ١٩٨١، قال: "حاولت أن أقدم هذه المجموعة عن حرب البسوس التى استمرت أربعين سنة عن طريق رؤية معاصرة،وقد حاولت أن أجعل من كليب رمزا للمجد العربى القتيل، أو للأرض العربية السليبة، التى تريد أن تعود للحياة مرة أخرى، ولا نرى سبيلا لعودتها أو بالأحرى إعادتها إلا بالدم، وبالدم وحده، وهذه المجموعة عن قصائد مختلفة، استحضرت شخصيات الحرب وجعلت كلا منها تدلى بشهادتها التاريخية حول رؤيتها الخاصة، ومن الطبيعى أن يكون لكل من هذه الشخصيات شهادتها المختلفة عن شهادة الأخرى.

obeikandi.com

"لا تصالح،

ولو حرمتك الرقاد

صرخات الندامة

وتذكر،

إذا لأن قلبك للنسوة اللابسات السواد

ولأطفالهن الذين تخاصمهم الابتسامة

أن بنت أخيك اليمامة

زهرة تتسربل – فى سنوات الصبا –

بثياب الحداد، الخ"

هذا هو الشاعر محمد أمل فهيم أبو القسام محارب دنقل ولد عام ١٩٤٠م بقرية القلعة، مركز فقط بمحافظة قنا، والذى تمر ذاكره الثلاثون هذه الأيام، وأتمنى ألا تمر فى هدوء مثلما تمر كل عام، فلا يصح أن تمر ذكرى شاعر فى حجم وقامة أمل دنقل دون أن تقام له احتفالية كبرى تليق به وبآثاره الشعرية الباقية ما بقيت الحياة، أو تدبج عنه المقالات لتتعرف عليه الأجيال الطالعة من المبدعين، وهو الذى أحدث ضجة كبيرة فى الحياة الأدبية حينما نشر قصيدة "مقتل القمر" فى صفحة الأهرام الأدبية وقتها عرف الناس أن شاعرا عظيما قد ولد على أرض

obeikandl.com

مصر. ولأنه شاعر عميق الرؤى، فالدخول إلى عالمه الرحب صعب وشائك، وذلك الشاعر المتعبد فى محراب الشعر، ينتسب للجيل الثانى للشعر الحر بعد جيل الرواد، عكف على التراث العربى لينهل منه ويوظفه فى أشعاره بعبقرية وعفوية غير مسبوقتين فى الشعر العربي.

جاء أمل دنقل من صعيد مصر، محملا بعبق الصعيد وصلابته، كان والده عالما من علماء الأزهر الشريف مما أثر فى شخصيته وقصائده بشكل واضح، وكان والده يمتلك مكتبة ضخمة تضم كتب الفقه والشريعة والتفسير، وذخائر التراث العربى مما أثر كثيرا فى أمل وساهم فى تكوين اللبنة الأولى له، فقد أمل دنقل والده وهو فى العاشرة من عمره مما أثر عليه كثيرا وأكسبه مسحة الحزن التى تجدها فى كل أشعاره. جاء أمل دنقل إلى القاهرة بعد أن أنهى دراسته الثانوية فى قنا والتحق بكلية الآداب، ولكنه انقطع عن الدراسة منذ العام الأول لكى يعمل، فعمل موظفا بمحكمة قنا، وفى جمارك السويس والإسكندرية، ثم بعد ذلك موظفا بمنظمة التضامن الأفروأسيوي، ولكنه كان دائما ما يترك العمل وينصرف إلى كتابة الأشعار ،ولم يكن أمل دنقل شاعرا فحسب، بل كان بقدر شاعريته الفذة إنسانا فذا، يعيش ويتعايش مع همومه الوطنية والإنسانية، ينفعل ويتفاعل معها، يثور ويغضب، يعلن عصيانه وتمرده على كل ما يخالف طبيعته الطيبة التى كانت تكمن خلف

صرامته وحدته فى الحوار، أو النزال مع الآخرين، والتى دائما ما يخرج منها منتصرا، ولو وصل الاصطدام بينهم إلى حد الاشتباك بالأيدي، دفاعا عن مواقفه الواضحة التى لا تعرف الميوعة، فكان صلبا فى آرائه، حازما كنصل السيف لا يخشى سلطة ولا جاها، ولم يساوم على شعره وفكره، ولم ينافق طمعا فى منصب أو مكسب مادي، بل ظل فى منأى عن كل ما هو رخيص وهين، ساعيا وراء ما هو أسمى وأرقي، كان يجلس مع الشعراء فى الحانات ينتقدهم واحدا واحدا، يهزمهم واحدا واحد، ثم يرفض أن يقول شعره، مثل الفارس الذى يتمكن من إسقاط كل سيوف مجموعة الفرسان، ثم يرفض أن يقتلهم بعد أن أصبحوا عزلا.

"آه لو أملك سيفا للصراع

آه لو أملك خمسين ذراع

لتسلمت – بإيمانى الهرقلى – مفاتيح المدينة."

دائما كان يتنبأ أمل دنقل بما سيحدث له وللوطن، ففى العشرين من عمره، ذكر أنه لابد منتحراً فى الثلاثين، وفى الثلاثين أكد أن حياته لابد وأن تنتهى فى الأربعين، فبعد صراع طويل مع المرض ذاق خلالها العذابات، وبعد المواجهة الصعبة بين الموت والحياة أثبت أمل أن الحياة أولا، وبعدها يأتى الموت، أمضى أمل دنقل عاما ونصف العام فى الحجرة رقم "٨" بالمعهد القومى للأورام، أنجز

خلالها ديوانه الأخير: "أوراق الغرفة ٨" لتصفو تجربته الشعرية وتشف بشفافية الروح التى تصعد إلى بارئها، يقول:

"فى غرف العمليات

كان نقاب الأطباء أبيض

لون المعاطف أبيض

تاج الحكيمات أبيض

أردية الراهبات

الملاءات

لون الأسرة

أربطة الشاش والقطن

قرص المنوم

أنبوبة المصل

كوب اللبن

كل هذا البياض بشيع بقلبى الوهن

كل هذا البياض يذكرنى بالكفن، الخ"

obeikandi.com

لم يمنع المرض أمل فى أيامه الأخيرة من مراودة حلمه الوحيد القصيدة، ظل يصارع الموت أملا أن يعيش حتى يكمل مشروعه الشعرى المتفرد، ولكن العمر لم يمهله أكثر من ذلك، وكما قال الشاعر أحمد عبد المعطى حجازي: كان السرطان يأخذ من جسده الناحل فتزداد روحه تألقا وجبروتا حتى كان باستطاعة زواره وعائديه أن يروا صراعه مع الموت، رأى العين، صراعا بين متكافئين "الموت والشعر".

هكذا غنى أمل دنقل للحياة وإنسانيتها دون رهبة أو خوف، ليسقط جسده النحيل بعد هذا الصراع الطويل مع المرض لينتصر الموت فى النهاية وتصعد روحه إلى السماء، رحل أمل دنقل عن دنيانا فى ٢١ مايو عام ١٩٨٣م، وكانت أخر لحظاته فى الحياة برفقة د. جابر عصفور وعبد الرحمن الأبنودى صديق عمره، مستمعا إلى إحدى الأغانى الصعيدية القديمة.

تبقى لنا أشعار أمل دنقل ممتعة ومؤرقة كلما قراناها عاودنا القراءة مرة أخرى لنكتشف حجم وشاعرية أمل التى كانت آخر أوراقها قصيدة "الجنوبي" التى يقول فيها:

obeikandi.com

– هل تريد قليلا من الصبر؟

– لا

– فالجنوبى يا سيدى يشتهى أن يكون الذى لم يكنه

يشتهى أن يلاقى اثنتين

الحقيقة

والأوجه الغابة.

★ نشرة فى جريدة القاهرة فى ٢٨ مايو ٢٠١٣

obeikandi.com